وقد احسن ايضاً فكتور هوغو لمّا تكلّم عن شجرة نُصبت لاكرام الحرية فقال: «انّ شجرة الحرية الاولى انّما نصبها الله عينهُ على الجلجلة قبل ١٨٠٠ سنة. وما هذه الشجرة الّا الصليب الذي عليه قرّب السيد المسيح جسدهُ ضحيّة ليضمن للجنس البشري الحرّية والمساواة والاخاء»

هذا بعض من عدّ من اقوال غير المؤمنين ولو شئنا ان نروي هنا شواهد لمشاهير العلماء من المؤمنين كلامرتين، وشاتوبريان وغيرهما في اطراء الدين وعقائده لضاقت المجلّة عن استيعابها (للصلة)

# شعراء النصرانية بعد الإسلام

## شعراء النصرانيّة في عهد الدولة العباسيّة (تابع)

للاب لويس شيخو اليسوعي

### ٣٥ بنو ممّاتي النصارى الاقباط

﴿اصلهم ودينهم وزمنهم﴾ بنو مماتي اسرةٌ شريفة قبطيّة اصلها من اسيوط في صعيد مصر كانت تدين فيها بالنصرانيّة وهي تنتمي الى ابي مليح الملقّب بمماتي. قال ابن خلكان (ص ١٠١): «كان ابو مليح نصرانيًا وانّما قيل لهُ مماتي لانهُ وقع في مصر غلاء عظيم وكان كثير الصّدقة والاطعام وخصوصاً لصغار المسلمين فكانوا اذا رأوهُ نادى كلّ واحد منهم «مماتي» فاشتهر به»

قال ياقوت في معجم الادباء (٢: ٢٤٤) يذكر انتقال بني مماتي الى مصر قال: «قدموا مصر وخدموا وتقدّموا وولُّوا الولايات. وهو (اي ابو مُليح) مع ذلك من اهل بيت في الكتابة عريق وهو كالسترولي على الديار المصريّة ليس على يده يدٌ. وكان الى مماتي كثير من اعماله»

وكان في تلك الايام وزيرًا على مصر بدر الجمالي امير الجيوش في ايام الخليفة المستنصر بالله وكان ابو مليح احد عمّاله يكتب في ديوان مصر ويتولى استيفاء الديون

ومما اخبره ياقوت في معجم الادباء (٢ : ٢٤٤ — ٢٤٦) عن الوزير جمال الدين الشيباني ما حرفهُ :

« بلغني انَّ بعض تجّار الهند قدم الى مصر ومعهُ سَكَّة مصنوعة من عنبر قد نُنُوِّقَ (في الاصل تُنُوِّقَ بالنون) فيها وأُجيد وطُيِّبت ورُصّعت بالجواهر فعرضها على بدر الجمالي ليبتاعها منهُ فساومها من صاحبها فقال : لا أنقصها من ألف دينار شيئًا . فأعيدت اليهِ . فخرج بها من دار بدر فقال لهُ ابو مليح : أرني هذه السكة . فأراهُ إيّاها فقال لهُ : كم سُئلتَ فيها ؟ فقال : لا أنقصها من الف دينار درهمًا واحدًا . فاخذ بيدهِ وقبض ألف دينار من مالهِ وتركها عندهُ مدّةً . فاتفق ان شَرِبَ ابو مليح يومًا وسكر وقال لندمائهِ : قد اشتهيتُ سكّرًا هائمًا المقلى والنار حتى تقليهُ بحضرتنا . فجاءوهُ بمقلى حديد وفحم وتركوهُ على النار وجاء بتلك السكة العنبر فتركها في المقلى . فجعلت تتقلّى وتفوح روائحها حتى لم يبقَ بمصر دارٌ إلّا ودخلتها تلك الرائحة . وكان بدرٌ الجمالي جالسًا فشمّ تلك الرائحة وتزايدت . فاستدعى المُزّان وامرهم بفتح خزائنهِ وتفتيشها خوفًا من حريق قد يكون وقع فيها . فوجدوا خزانتهُ سالمةً فقال : ويحكم انظروا ما هذا . فتفتّشوا حتى وقفوا على حقيقة العنبر فاستعظم وقال : هذا النصراني الفاعل الصانع قد اكل اموالي واستبدَّ بالدنيا دوني حتّى امكنهُ ان يفعل هذا . وتركهُ الى الغداة فلما دخل اليهِ وهو مُغضب قال لهُ : ويحك أستعظمُ انا وانا ملكُ مصر شرى سكّةً من العنبر فأتركها اشكنارًا تشتريها فتشتريها انت . ثمَّ لا يُغنيك حتى تقليها وتذهب في ساعةٍ واحدٍ بألف دينار مصرية ؟ ما فعلتَ هذا إلّا وقد قتلتَ بيت اموالي اليك وفعلت » . فقال لهُ : « والله ما فعلتُ هذا الّا غيرةً عليك ومحبةً لك فانّك اليوم سلطان نصف الدنيا وهذه سكةٌ لا يشتريها إلّا ملك فخفتُ أن يذهب بها الى بعض الملوك ويخبرهُ بأنك استظهرتها ولم تشترها فأوردتُ ان اعكس الامر وأعلمهُ أنك ما تركتها إلّا استقذارًا لها وانها لم يكن لها عندك مقدار وانَّ كاتبًا نصرانيًا من كتّابك اشتراها وأحرقها فيشيع بذلك ذكرك ويعظم عند الملوك قدرك » . فاستحسن بدر ذلك منهُ وامر لهُ بضعفي ثمنها وزاد في رزقهِ »

واردف ياقوت : وكان مسّاتي مع ذلك كريمًا ممدّحًا قد مدحهُ الشعراء . فذكر ابو الصلت في كتاب الرسالة المصريّة لهُ انَّ ابا طاهر اسماعيل بن محمّد النشاع المعروف بابن مكنسة (١ كان منقطعًا اليهِ فلمّا مات مساتي رثاهُ ابن مكنسة بقصيدة منها :

اذا أُرجّي من حيا ... ي بعد موت ابي المليح (٢

---

١) وفي الخطط للمقريزي (٢ : ١٦٠) يدعوهُ : ابن المكنسة وهو تصحيف

٢) ويروى : « من ذا أؤمّل » ويروى : تناثرت شُهب العلا من بعد . . .

طُوِيَتْ سماءُ المكرمـا تِ وكوّرت شمسُ المديحِ

ما كان بالنكس الدنيّ م من الرجال ولا الشحيحِ

ولما وليَ الافضلُ ابن امير الجيوش بدر الجمالي بعد ابيهِ دخل اليهِ ابن مكنسة مادحاً فقال لهُ: ذهب رجاؤك بموت ابي المليح فما الذي جاء بك الينا؟ وحرمهُ ولم يقبل مديحهُ

وقرأنا في كتاب البدر السافر في انس المسافر (ص ١١٤) لكمال الدين ابي الفضل جعفر الادفوي المتوفّى سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١م) انّ ابا مليح عمّاتي كان اسمهُ ميناً وانهُ ابن ابي زكريّا بن ابي قدامة. قال (ص ١٩٨):

« وكان جوهرياً بمصر وكان يصنع البلّور صنعة الياقوت فلا يميّز بينها إلا الخبير بالجوهر. قال الوزير التنوخي: حكى لي رجلٌ يُعرَف بالرشيد الصائغ انهُ اذا كان نودي على القصّ من صنعتهِ تشوّفت نحوهُ العيون اكثر من تشوّفها الى غيرهِ من الجوهر لجودتهِ وحسن منظرهِ »

﴿ولدهُ المهذّب تمّاني﴾ قال ياقوت في معجم الادباء (٢: ٢٤٦): « امّا المهذّب ولدهُ (اي ولد ابي مليح) وكان يلقّب بالخطير فانهُ كان كاتب ديوان الجيش بمصر في اواخر ايّام المصريّين (يريد الفاطميين) واوّل يوم بني ايّوب مدّةً فقصدهُ الكتّاب وجعلوا لهُ حديثاً عند صلاح الدين يوسف بن ايوب او (وزيره) اسد الدين شيركوه وهو يومئذٍ المستولي على الديار المصرية فخاف المهذّبُ فجمع اولاده ودخل على السلطان وسلّموا على يده فقبلهم واحسن اليهم وزاد في ولاياتهم »

ثمّ نقل هناك ما اخبرهُ ابو المكارم اسعد ابن المهذّب عن ابيهِ الخطير قال انهُ كان مرتّباً على ديوان الاقطاعات وهو على دين النصرانيّة فلمّا علم اسد الدين شيركوه في بعض امرهِ بمصر انهُ نصراني وانهُ يتصرّف في [عملهِ] بلا غيار نهاهُ وامرهُ بغيار النصارى ورفع الذؤابة وشدّ الزنّار وصرفهُ عن الديوان فبادر هو واولاده فأسلموا على يدهِ فاقرّهُ على ديوانهِ مدّة ثمّ صرفهُ عنهُ فقال فيهِ ابن الذروي:

لم يسلم الشيخُ الخطيرُ لرغبةٍ في دين أحمَدْ

بل ظنّ ان بحالهِ يبقي لهُ الديوانَ سرمَدْ

والآنَ قد صرفوهُ عنهُ فديتهُ فالعود أحمَدْ

فترى من هذا ما كان يقاسيهِ النصارى من المنّت فيسلمون لا حبًّا بالاسلام واقتناعاً بصحّتهِ بل خوفاً من ضرر يلحق بهم او منصب يفتقدونهُ. فلا يصحّ ان ننظم مثل هؤلاء في سلك المسلمين. وقد اخبر ياقوت الرومي عن سبب وفاة المهذّب (ص ٢٤٨) قال:

ومن عجيب ما جرى للخطير انهُ كان يومًا جالسًا في ديوانهِ في حجرة موسومة بديوان الجيش من قصر السلطان بمصر. وكانت حجرةً حسنة مرتّمة منتّقة فجاءهُ قومٌ وقالوا لهُ: قم من ها هنا. فقال لهم: ما الخبر؟ فقالوا: قد تقدّم الملك العادل ابو بكر بن ايّوب بأخذ رخام هذه الحجرة وان نعمّر بهِ موضعًا آخر. فخرج متكسرًا كاسفًا فقيل لهُ في ذلك فقال: «قد استُجيبَتْ فينا دعوةٌ وما اظنّني اجلس في ديوان بعدها. أما سمعتم اذا بالغوا في الدعاء علينا قالوا: خرّبَ الله ديوانهُ. وما بعد الخراب الّا الياب. ثم دخل منزلهُ وحُمَّ فلم يخرج منهُ إلّا ميتًا»

وكانت وفاة الخطير يوم الاربعاء ٦ رمضان سنة ٥٧٧ (١١٨٢م) وذكر الأدباء للمهذّب شعرًا فمن ذلك ما قالهُ لاسد الدين شيركوهُ لمّا امرهُ بالفرار (من السريع):

يا أسد الدين ومَنْ عدلُهُ يحفَظُ فينا سُنَّةَ المصطفى
كفى غيارًا شدُّ أوساطِنا فما الذي اوجبَ(١ كشف القفا

ومن شعرهِ ما رواهُ عنهُ سعيد بن ابي الكرم بن هبة المصري يتغزّل بابي سعيد ابن ابي اليمن النحّال وزير العادل وكان نصرانيًا وأسلم وكان املحَ الناس وجهاً فقال المهذّب (من السريع):

وشادنٍ لمّا بَدا مُقبلًا(٢ سبّحتُ ربَّ العرش باريهِ
ومُذْ رأيتُ النَّحلَ في خدّهِ(٣ أيقنتُ انَّ الشَهْدَ في فيهِ

وكان ابن النحّال يسكن في اوّل درب نور الدين في مصر وكان في آخرهِ صبيّ آخر

١) ويروى: يوجبُ
٢) وفي ياقوت (ص ٢٤٨) وشاذن (بالذال وهو غلط) لمّا أتى
٣) ويروى: النمل في خدّهِ

نصراني مثلهُ حُسناً يُعرَف بابن زنبور فقال المهذَّب (من الطويل):

حوى دربُ نور الدين كلَّ شَمَرْدلٍ مشـدَّدةٍ اوسـاطُهم بالزنانيرِ
فأوَّلهُ للشَّهد والنَّحـلِ منزلٌ وآخرهُ يا سادتي لـلزنابـيرِ

ومن ظريف قولهِ تمَّا رواهُ الادفوي (من الطويل):

ولمَّا بكَتْ عيني دماً لِفَقْدكم تيقَّنتُ انَّ القلبَ فيـهِ كلومُ

وروى لهُ العماد الاصبهاني في الخريدة قولهُ في كتمان السرّ (من البسيط):

واكتمُ السرَّ حتَّى عن إعادتهِ الى المُسِرِّ بهِ من غير نسيانِ
وذاك انَّ لساني ليس يُعلِمُهُ سَمْعي بسرِّ الذي قد كان ناجاني

وروى ايضاً (Ms. Berlin 7412, ff. 180) يصف الخمر (من البسيط):

اذا انبرَتْ من فمِ الابريقِ تحسَبُها شِهابَ ليلٍ رُقي في الكاسِ شَيْطانا

قال: ومن شعرهِ من قصيدةٍ (من الطويل):

ابيتُ رقيبَ النَّجم منها كأنَّما عُيونيَ لم يُخلَقْ لهنَّ جفونُ

ومنها:

كأنَّ ظلامَ الليل اذ لاحَ بَدْرهُ دُجوجيُّ شَعرٍ لاحَ منهُ وجينُ
كأنَّ الثريَّا ترقبُ الـليلَ غيرةً فقد هجرَتْ منها المنامَ عيونُ
كأنَّ سُهَيلًا في مطالع أُفقِهِ فؤادٌ مَروعٌ خامرَتْهُ ظُنونُ
كأنَّ السها تبدو أواناً وتَنجَلي لدى الليلِ سرٌّ في حشاهُ مَصونُ

﴿ابنهُ الاسعد مَمّاتي﴾ هو شرف الدين ابو المكارم اسعد بن المهذّب مَمّاتي المصري الكاتب الشاعر. قال ياقوت في معجم الادبا (٢: ٢٤٩) والمقريزي في الخطط (٢: ٢٦٠): «خلف اباهُ على ديوان الجيش وتصدّر فيهِ مدّةً طويلة ثمّ أُضيف اليهِ ديوان المال وهو اجلُّ ديوان من دواوين مصر واستمرَّ في ذلك مدّة ايام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأيام ابنهِ الملك العزيز عثمان وولي نظر الدواوين واختصّ بالقاضي الفاضل عبد الرحمان بن علي البيساني فنفق عليهِ وحظي عندهُ وكرُم لديهِ فقام بامرهِ واشاع من ذكرهِ ونبَّه على فضلهِ وصنَّف لهُ عدّة تصانيف باسمهِ وكان يسميهِ بلبل المجلس»

قال المقريزي في الخطط: «ولم يزل بمصر حتى ملك السلطان الملك العادل ابو بكر بن ايوب ووزَرَ لهُ صفيُّ الدين عليّ بن عبدالله بن شكر فخافهُ الاسعد لِما كان يصدر منهُ في حقهِ من الاهانة وشرع الوزير ابن شكر في العمل عليهِ ورتَّب لهُ مؤامرات ونكبَهُ وأحال عليهِ الاجناد ففرَّ من القاهرة وسقط في حلب»

قال ياقوت في معجم الادبا: حدَّث الصاحب جمال الدين الاكرم قال: لمَّا ورد الاسعد الى حلب نزل في داري فاقام عندي مدّةً وذلك في سنة ٦٠٤ (١٢٠٧م)، وعرف الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين خبرَهُ فاكرمهُ وأجرى عليهِ في كلّ يوم ديناراً صوريًّا وثلثة دنانير أخرى أجرة دار... واقام عندهُ على قدم العطلة الى سنة ٦٠٦ وفيها مات سلخ جمادى الاولى سنة ٦٠٦ (١٢٠٩م) عن ٦٢ سنة فدُفن بظاهر حلب بمقام بقرب قبر ابي بكر الهروي»

واشتهر الاسعد بادبهِ ومصنَّفاتهِ. قال العماد الاصبهاني: «كان فاضلًا اديباً شاعراً ناثراً... وتأدّب وصنَّف مصنَّفات في فنون عدّة منها كتاب سرّ الشعر صنَّفهُ للملك العزيز. وكتاب علم النثر. ونظَّم سيرة السلطان صلاح الدين يوسف ونظم كتاب كليلة ودمنة. ومن تآليفهِ المشتهة كتاب صكّة الحقّ على الخلق في التحذير من سوء عاقبة الظلم كان السلطان صلاح الدين يُكثر النظر فيهِ وهو من اهمّ ما طالعهُ الملوك. وصنَّف ايضاً للملك العزيز كتاب قوانين الدواوين فيما يتعلَّق بدواوين مصر ورسومها واصولها واحوالها في اربعة اجزاء ضخمة ذكر فيهِ اربعة آلاف ضيعة من اعمال مصر ومساحة كل ضيعة وقانونَ ريّها ومتحصَّلها من عين وغلّة. وكتب اخرى

كثيرة عدَّدها ياقوت في معجم الادباء (٢ : ٢٥١)

ولاسعد تمَّاتي ديوان شعر تمدَّدت محاسنهُ فروى منهُ الادباء عدَّة مقاطيع. فمن ذلك ما رواهُ عنهُ السيوطي في اخبار مصر والقاهرة (٢ : ٢٠٧و٢٠٨) يصف جزيرة مصر (من الطويل):

جزيرةَ مِصرٍ لا عَدتْكِ مَسَرَّةٌ ولا زالتِ اللذَّاتُ فيكِ اتصالُها
فكم فيكِ من شمسٍ على غُصْنِ بانةٍ يُميتُ ويُحيي هَجْرُها ووِصالُها
مَغانيكِ فوق النيلِ اضحَتْ هوادجاً ومختلفاتُ الموجِ فيها جمالُها(١
ومن أعجب الاشياء انكِ جَنَّةٌ تُديفُ على اهلِ الضَّلالِ ظلالُها(٢

وقال في الروضة وقد حلَّها السلطان الكامل محمَّد (من الطويل):

جزيرةَ مصرٍ انتِ اشرفُ موضعٍ على الارض لمَّا حلَّ فيكِ محمَّدُ
وفيكِ عَلا البَحرانِ لكنَّ كفَّ ذا على الناسِ أندى بالعطاء وأجوَدُ
واصبحتِ الاغصانُ من فرَحٍ بهِ تَمايلُ والأطيارُ فيكِ تَغرِّدُ
فرَقَّ نسيمٌ حين سار وجَدْوَلٌ ويشدو هَزارٌ حين يرقصُ مُنشِدُ

وانشد في وصف الخليج (من الوافر).

خليجٌ كالحُسامِ لهُ صِقالٌ ولكنْ فيهِ للرَّاني مَسَرَّهْ
رأيتُ بهِ المُلاحَ تَعومُ فيهِ (٣ كأنَّهمُ نجومٌ في المجرَّهْ

ومما قالهُ في تحامُل الوزير صفيّ الدين عليهِ وهربهِ الى حلب (من الطويل):

١) روى المقري في نفح الطيب (١ : ٣١) : فيك جمالها
٢) وفي المقري : تمدُّ. اراد انها يستظلُّ تحت اغصانها غير المسلمين فتمتنهم باهل الضَّلال
٣) كذا في الاصل. وفي نسخة اخرى : تجيد عوماً

تنكَّرَ لي وذُ الصفيِّ ولم أكُنْ بهِ رافعاً رأساً لواعتدلَ الزَّمَنْ
ولكن علا عند انخفاضٍ وساءني وحَسْبُكَ من شخصٍ تركتُ لهُ الوطنْ

وقال ايضاً (من مجزوء الكامل):

لا تَقبلنَّ من الوُشا ةِ وتُقبلنَّ على العواذلْ
فالعينُ قد جُنَّتْ ببُعْـ ـدكَ والدموع لها هواطلْ

ودخل يوماً على صلاح الدين فوجدهُ يلعب بالشطرنج فقال (من السريع):

ان يَكُنِ الشِطرَنجُ مَشغَلَةً لعليِّ القَدْرِ والهِمَمِ
فهي في ناديك تذكرةٌ لامور الحربِ والكرَمِ

وقال في غلام نحويّ (من السريع):

وأهيفٍ أحدَثَ لي نَحْوُهُ تعجُّباً يُعرِبُ عن ظَرْفِهِ
علامةُ التأنيثِ في لفظهِ وأحرُفُ العِلَّةِ في طَرْفِهِ

وروى لهُ الصفدي في شرح لامية العجم (من السريع):

أيَسكنُ الناسُ وقد حاطَهُمْ سبعةُ افلاكٍ عليهم تَدُورْ
والدارُ في الاخرى دهاليزُها في هذه الدنيا لُحودُ القُبورْ

وقال في وصف الحسود (من الخفيف):

لا تُصِخْ للحَسودِ في ذَمِّهِ م النعمةَ مع كونهِ العجولَ اليها
فهو مثلُ السحابِ اذ حجبَ الشمسَ م عن العينِ ثمَّ يبكي عليها

ومما مدح بهِ الظاهرَ الغازي في حلب قولهُ (من الوافر):

أسكرانُ نديمُ المَدْوِ غازٍ واسماءُ الملوكِ لها حُلاها
كأنَّ الشَعْرَ رَيْشُها طوالٌ فكم نَفسٍ بهنَّ قد استقاها
اذا اكتحلَتْ عيونٌ من عُداةٍ يغيِّرُ حِلْيةً وجدَتْ عماها

وأطمعَ نفسَ أسمرَ واضحى يفتّش من نفوسٍ ما خباها
كأنك خلتها سترت كميناً فتطعنها لتبصرَ ما وراها
سلِ البيت المقدّس عنهُ يُخبرْ بسورة فتحهِ لمّا تلاها

وروى لهُ ابن خلكان في المعاتبة (من الوافر):

تعاتبني وتنهى عن امورٍ سبيلُ الناسِ ان ينهَوكَ عنها
أتقدرُ ان تكونَ كمثل عيني وحتّك ما عليَّ أضرُّ منها

وقال منوّهاً بنهري دمشق ثورا وبَرَدَى (بحزر. الوافر):

حكى نهرَيْنِ ما في الار ضِ مَن يحكيهما أبدا
حكى في خَلْقِهِ ثَوْرَا وفي اخلاقهِ بَرَدى

اخذهُ من قول بعضهم:

ضاهى ابنُ بشرانَ مدينةَ جلّقٍ كلاهما يوم الفخارِ فريدُ
ألفاظهُ بَرَدى وصورةُ خلقهِ ثورا ونفسُ المَثَل هو يزيدُ

وقال في النزل (من الرجز):

سمراءُ قد أزرَتْ بكلِّ أسمرِ بلَوْنها ولِينها وقدّها
انفاسُها دخانُ ندٍّ خالصا وريقُها من ماء وَرْدٍ خدّها
لو كتب البَدْرُ الى خدمتها رسالةً ترجمها بعبدها

وقال يصف كرماً (من الطويل):

لنيرانهِ في الليلِ ايُّ تحرّقٍ على الضَّيفِ إن أبطا وايُّ تلهّبِ
وما ضرَّ من يَنشو الى ضوءِ نارهِ اذا هو لم ينزل بآل المهلّبِ

(لهُ بقيّة)